بدايات التغيير فلسطينياً

□ يوسف فخر الدين

هل دار في خلد محمد البوعزيزي، حين قرّر إحراقَ نفسه، أن يصنع من جسده عودَ ثقابٍ عظيمًا يُشعل الثورةَ العربيّة؟

لا يمكن تخيّلُ ذلك، لكنّه حصل فعلاً. فالجسد النحيل الأسمر وضع نقطةً في آخر سطر الاستبداد، وأطلق ثورةً جوّالةً ما زال الناسُ يكتبون فصولَها التالية في شوارع المدن العربيّة، واحدةً تلو أخرى.

سيدرك كلُّ مَنْ كتب عن الثورة ومجرياتها لاحقًا أيّةَ مغامرة أقدم عليها، فالجديد كلّ الجدّة في الوضع الراهن يُفقدنا القدرةَ على التفكير في استخدام القياس لفهمه. وهذا ما يستدعي المتابعةَ الدقيقة، والبحثَ الجادّ من قبل عقل جمعيّ نجد أنّ غيابه هو الذي يبرّر لنا جرأة التنطّع في الكلام على حدثٍ أصواتُ المشاركين فيه في الشوارع أعلى وأنقى من أصوات المتحدثين عنه. فإذ أحرق بوعزيزي نفسَه في ثورة غضبٍ على كرامته المهدورة، اشتعلتْ تونسُ ثورةً سلميّة، وتحوّل التضامنُ في مصر إلى ثورة سرعان ما حقّقتْ مطالبَها الأولى. في البلدين، انتقل الشعبُ من الهامش إلى متن التاريخ، عبر إزاحة السلطة التي تحوّلتْ إلى ضربٍ من ضروب السلطانيّة الجديدة، تُحْيي وتميت وتورِّث. وفي البلدين، حصل التغييرُ نتيجةً لإرادة الشعب في التدخّل المباشر من أجل صناعة مستقبله. وتحقّقت الخطوةُ الكبيرةُ الأولى في إجبار النظامين على التخلّي عن رأسيهما وبطانتهما، مع تعهّدهما بالإصلاح وإطلاق الحريّات العامّة. وفي المقابل، تخلّى الشعبان عن سلطة التسيير الذاتيّ التي كانا بدءا في بنائها من خلال اللجان الشعبيّة التي ملأت الفراغَ الناجمَ عن انسحاب الدولة، وإنْ بقيا يحرسان ثورتيهما بالخروج إلى الساحات كلّما لاح تباطؤٌ في استكمال تحقيق مطالبهما، وكلّما تعاظمت المخاوفُ من أن يكون ذلك مقدِّمةً للتنصّل منها. وهو ما يؤشر على مدى الحيويّة التي أُطلقتْ في كلا المجتمعين.

وسيلة التغيير كانت، في البلدين، هي التظاهر السلميّ. في اللحظة الأولى انتقل الفعلُ الشبابيّ من العالم الافتراضيّ، حيث اجتمع وتثقّف وتنظّم، إلى الساحات العامّة في المدن، بانيًا بؤرًا شبهَ آمنةٍ شجّعت القطاعاتِ الشعبيّة المتردّدة على النزول والتعبير عن رأيها. وانضمّت موجاتٌ جديدةٌ إلى ساحات التحرير والتغيير، مطمئنّةً إلى المنجَز الأول، الذي ساهم الإعلامُ في تكريسه حين نقله إلى العالم. فتوحّد الشعبُ خلف مطالبَ سرعان ما انتقلتْ من الخبز والكرامة إلى إسقاط النظام. وبمقدار إدراك الناس قوّتَهم وقدرتَهم على تنظيم أنفسهم وإدارة الكثير من شؤون حياتهم، كانت تتبلور سلطةُ الشعب في مقابل السلطة الاستبداديّة الفاسدة. وهكذا انفتح المشهدُ على احتمالين

١) أن يبطشَ النظامُ بالشعب، محوّلاً جزءًا من قوّته إلى ميليشياتٍ فاشيّةٍ أو شبه فاشيّة، ودافعًا بهذا الشعب إلى الانتقال إلى المواجهة المفتوحة دفاعًا عن النفس.

٢) أن يرضخ النظامُ للمطالب الشعبيّة محاولاً إيجادَ توسّطاتٍ بينها وبين الحفاظ على نفسه.

واختار النظامان، نتيجةً لوجودٍ فعليّ لدولةٍ ومؤسّساتٍ ذات استقلاليّةٍ نسبيّةٍ عن مركز السلطة، الخيارَ الثاني، كما رأينا ـ وهو خيارٌ جنّب البلدين حربًا أهليّة مدمّرة، خلافًا لنظم عربيّة أخرى اختارت الاحتمالَ الأول بعد انتقال الثورات والانتفاضات الشعبيّة إليها.

❖ ❖ ❖

ألهمت الثورتان التونسيّة والمصريّة الشعوبَ من شمال إفريقيا حتى الصين، وتبنّى مزيدٌ من الشباب الأفكارَ التأسيسيّة التي اعتمدتاها، وشاعت المطالبةُ بحريّة الشعب وسيادته والمشاركة السياسيّة. وكان من الطبيعيّ أن يجد الشبابُ الفلسطينيّ في هذا كلّه مصدرَ إلهامٍ جديدًا، خصوصًا أنه يحاكي مصالحَه الأساسيّة، ويجيب عن تساؤلاتٍ قلقةٍ يطرحها شعبٌ تعمل «نخبتُه» السياسيّة على اختصاره بعد أن تخلّت عن أكثر من ٨٠٪ من ترابه الوطنيّ.

تمثّلتْ لحظةُ البداية في اعتصام عشراتِ الطلاب الفلسطينيين داخل السفارة الفلسطينيّة في لندن، وتلاوتِهم بيانًا أكّد مطلبَ انتخاب مجلس وطنيّ فلسطينيّ جديد. في الوقت عينه، أطلق ناشطون من فلسطين والشتات «حملةَ التمثيل الوطنيّ الفلسطينيّ،» التي عبّرتْ عنها عريضةٌ استهلّتْ فيها أعمالَها بإقرارها بـ «أنْ لا تمثيلَ وطنيّاً فلسطينيّاً إلاّ لمجلسٍ وطنيٍّ منتخبٍ من قِبل الشعب الفلسطينيّ في الشتات والأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ و١٩٦٧.» ودعت في

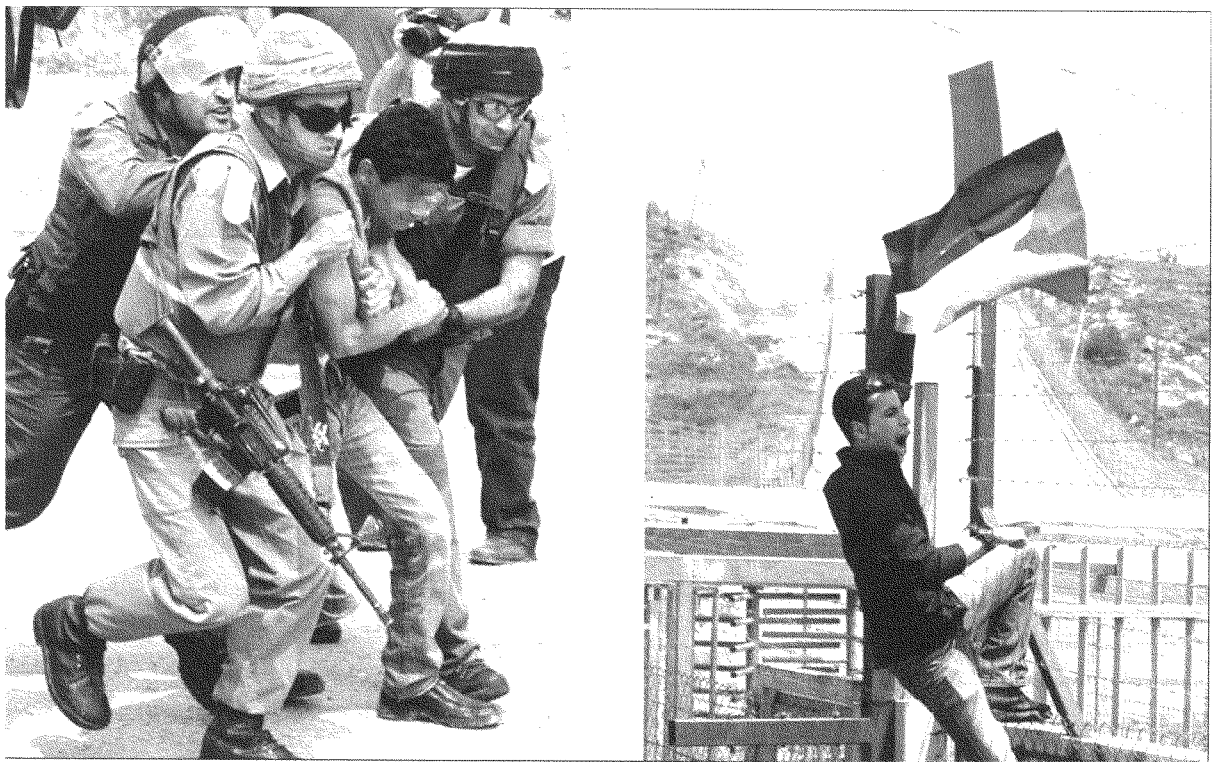

اليمين. شاب أُسر في اعتصام في فلسطين اليسار اعتصام شباب الحراك الوطني المستقلّ أمام سجن عوفر.

خطوتها الثانية إلى الاعتصام «أمام السفارات والممثّليّات أو حيث يمكن» من أجل نقل هذا المطلب إلى الشارع والضغط من أجل تحقيقه ـ وهذا ما حصل فعلاً في حيفا ونيويورك وواشنطن وفي مخيّمي اليرموك وخان الشيح قرب دمشق.

ما ميّز الخطواتِ الشبابيّةَ الفلسطينيّة الأولى أنها وعت دورَ المؤسّسات الوطنيّة في توحيد الشعب الممزّق منذ نكبة ١٩٤٨، ووعت من ثمّ خطرَ مؤسّسات «الوطنيّة الجديدة» (سلطة الحكم الذاتيّ المحدودة) التي سعت إلى تقليص الشعب الفلسطينيّ ليتطابقَ مع المشروع السياسيّ الذي قامت على أساسه في جزءٍ من الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. ففي حين حاولت السلطةُ استخدامَ مفرداتِ المطالب الديمقراطيّة في حدود الضفّة والقطاع لتنفيس الاحتقان العامّ في اتجاهها ولتوجيهه ضدّ سلطة «حماس» في غزّة، تبنّى الشبابُ وطنيّةً ديمقراطيّةً تصرّ على أنّ الشعب الفلسطينيّ هو صاحبُ الأرض المحتلّة من النهر إلى البحر. وبينما عملت السلطةُ ومؤسّساتُها وحزبُها القائد، حركة فتح، في البداية على دعم الدعوة إلى «إنهاء الانقسام» معتبرةً أنّه يصبّ في نهرها، رفض الشبابُ زجَّ حركتهم في حلبة الصراع بين فتح وحماس، وأصرّوا على مطلب المؤسّسة الوطنيّة الجامعة المنتخبة.

كاد الصراع أن يأخذ شكلَ الانقسام بين فلسطينيي الشتات وأراضي ٤٨ من جهة، وفلسطينيي أراضي ٦٧ من جهة أخرى، لو لم يبادرْ مركزٌ فعّالٌ في الضفّة إلى حمل لواء الوحدة الوطنيّة والمطالبةِ بمجلسٍ وطنيٍّ ينتخبه الشعبُ الفلسطينيُّ في كلّ أماكن وجوده ـ وهو ما وجد بعضَ التجاوب في غزّة. وفي الشارع ضَرب الحراكُ الشبابيّ المستقلُّ مثالاً مؤثّرًا في طريقة اكتساب الوعي من خلال الفعل، وانتقل الناشطون من المطالبة بـ «إنهاء الانقسام» إلى المطالبة بـ «مجلس وطنيّ منتخَب،» على الرغم من الضغوط التي كانوا يتوقّعونها من سلطتيْ حماس وفتح المتصارعتيْن:

ـ فحركة حماس اعتبرتْ أنّ أيّ دعوةٍ إلى إنهاء الانقسام والتظاهر ضمن حدود سطوتها هي دعوةٌ مشبوهة. لذلك عملتْ على قمع المتظاهرين بعنف (كما حصل في ساحة الجنديّ المجهول وساحة الكتيبة) بعد أن فشلتْ في احتواء التظاهر. وتزايدتْ هواجسُها حين علت الأصواتُ مطالبةً بمجلسٍ وطنيٍّ منتخب: فحماس ترفض فكرة الشرعيّة الديمقراطيّة، والقيادة الموحّدة، وتعتمد شرعيّتَها الخاصّة المستمدّة من تفسيرها للإسلام ومن مجلس الشورى الخاصّ بها ومن انتخاباتٍ جرت لمرةٍ واحدةٍ بناءً على اتفاقيّة أوسلو. . علمًا أنّ تلك الانتخابات وهذه الاتفاقيّة اختصرت الفلسطينيين إلى جزءٍ منهم فقط.

ـ أمّا حركة فتح فناورتْ، بالشراكة مع سلطة رام الله، في محاولةٍ لتركيز الانتقادات على حماس، وحاولتْ حصرَ المطالب بإنهاء الانقسام. وعندما وجدتْ تصميمَ الشباب المستقلّ على توسيع حزمة المطالب ـ ما يعني عمليّاً مواجهةَ

اتفاقيّات أوسلو وما نتج منها ـ شاركتْ في الضغط عليهم لإجبارهم على التراجع. فأحرقتْ شبيبةُ فتح خيمةَ الاعتصام في ساحة المنارة، وقامت أجهزةُ أمن السلطة بهدم خيمةٍ أخرى في سلفيت، وطَعَنَ أحدُ أعضائها شاباً من المعتصمين، وتوالت عمليّاتُ الاعتقال والترهيب.

❖ ❖ ❖

بعد زمن طويل من احتكار الواقعيّة الزائفة لموضوع «الخصوصيّة الفلسطينيّة» من أجل تبرير نهج التنازل، استطاع شبابٌ فلسطينيٌّ واعٍ التعاملَ مع هذه الخصوصيّة لا من حيث كونها أمرًا ستاتيكيّاً غيرَ قابل للتعديل، وإنما في وصفها وضعًا متحرّكًا يَلزم تحديثُ قراءته وتطويرُ الأدوات الضروريّة للتفاعل معه بما يَضْمن مصالحَ الشعب. ومن المبشِّر بالخير امتلاكُ الشباب لإجابةٍ عن سؤالٍ كثيرًا ما تردّد بعد كارثة اتفاقيّات أوسلو، ألا وهو: «هل يمكن أن تتفق القطاعاتُ الفلسطينيّةُ الثلاثة على هدفٍ واحد؟»

صحيح أنها إجابةٌ ما زالت محدّدةً ضمن دائرة الحديث عن الهياكل السياسيّة، ولكنّ البنى ـ في الغالب ـ تحمل، في طيّاتها، مساراتِها شبهَ الإلزاميّة، وتتضمّن موقفًا من قضايا تأسيسيّةٍ عدّة. فنحن عندما نتحدّث عن مجلس وطنيّ منتخب من كلّ الشعب الفلسطينيّ نكون قد أجبنا عن أسئلةٍ من قبيل: مَن هو الشعب؟ وما هي حدودُ أرضه الوطنيّة؟ ومن هو مصدرُ الشرعيّة؟ وما هي الآليّاتُ التي من خلالها يفكّر الشعبُ، وينظّم علاقاتِه الداخليّة والخارجيّة، ويناضل بواسطتها من أجل استرداد حقوقه الوطنيّة؟ وكلّها أسئلة تحتاج إلى إجاباتٍ وطنيّةٍ حاسمةٍ للوصول إلى وحدة وطنيّة حقيقيّة تساهم في إضاءة الطريق للتخلّص من الاستعصاء السياسيّ الذي نتج من نهج القيادة المتنفّذة، ومن تخبّط معارضتها التي لا تمتلك برنامجًا عمليّاً واضحًا.

❖ ❖ ❖

من المبكّر الاحتفالُ بانتصار الحراك الشبابيّ الفلسطينيّ، وإنْ كان مؤشّرًا لا يَخيب على تعفّن النظام السياسيّ المهيمن وعلى جاهزيّته للسقوط. إلا أنّ التاريخ مليءٌ بالشواهد التي تدلّ على أنّ نُظمًا كثيرةً استطاعت الاستمرارَ طويلاً على الرغم من تعفّنها، وهي قد دَمّرت الشعوبَ التي رضختْ لسطوتها حين لم تمتلك الأخيرةُ وعيَ الثورة وإرادتها لإزالتها. لكنّ الحراك الشبابيّ، في حدّ ذاته، تعبيرٌ عن أنّ الشعب الفلسطينيّ قطع شوطًا كبيرًا على طريق امتلاك هذين الشرطين الحاسمين لإجراء التغيير، وهو ما يفترض الكثيرَ من الجرأة للالتفاف حوله ونصرته. ولعلّنا لا نجانب الحقيقةَ إنْ قلنا إنّ مثل هذا التغيير شرطٌ لازمٌ لتوحيد الشعب، ولاستعادته قدرتَه على مواجهة الكيان الصهيونيّ العنصريّ على طريق استئصاله.

دمشق

يوسف فخر الدين

كاتب وناشط فلسطينيّ